البشارة

«الى سليمان خاطر»

محمود نسيم

قمرُ الصحراءِ، . .
وبعضُ خيامِ الجندِ، وخطواتُ الحرّاسِ أمام الوحداتِ،
وهَمْيُ الضوءِ من السرجِ الليليةِ . .
خطّط في الأرض بإصبعهِ، وأهال الرملَ . .
تأمّلَ نحرَ الموجِ بصخرِ الشطآنِ، وقوسَ الأفقِ المفتوحَ
على الظلمةِ . . ،
وجبالَ الطورِ المجدولةَ في سُرفِ الليلِ . .
أتلك كثافتُها:
لحظةُ أبدٍ تنهلُّ من الوقتِ . .
استشعر شيئاً كمسيل القطرِ على النبتِ
استجمع في يدهِ ملمسَها: تلك الأشياءَ الأولى . .
أذرعة الأطفالِ المشتبكةَ في دائرةٍ، وعقودَ الضوءِ
المفروطة في العتمةِ، ورجالَ القريةِ في السمرِ الليليِّ،
وموعدها الأولَ . . رعشةَ جسمينِ، وأفقَ عصافيرَ
انفلتتْ . .
وفراشاً مخطوفاً من بين يديهِ إلى أضلعها . .
غمرَ الخلجانِ المفتوحةِ، ومهيلَ مياهٍ منهمرةْ
قلبينِ يشقهما سهمٌ محفوريْن بجذعِ الشجرةْ

غصّ بلحظتهِ السحريّةِ . .
واكتمل القلبُ . . فجَمّعَ كلَّ المرئيّات: خضارَ الزرعِ ،
مواسمَ
جمع القطنِ، مواويلَ الأجراءِ، زغاريدَ النسوةِ مصبوغاتِ
الأيدي بالحنّاءِ، ورقصَ الخيّالةِ ليلةَ دخلتهِ، . .
الصفصافَ المنهدلَ على ماءِ الترعةِ . .
أذانَ المغربِ في رمضان، صباحَ العيدِ، صلاةَ الجمعةِ
شيخَ الكتابِ، وألواحَ الصاجِ ، وأعوادَ البوصِ المسنونِ،
ملامحَ وجهِ أبيهِ، ورسمَ البيتِ، البيتِ . .
انحلّ الوترُ عقوداً من خرزٍ،
واكتمل القلبُ الآن، اكتمل القلبُ . .
والأفقُ امتدّ على الصحراءِ،
أتلك نهايتُها:
هذي المرئياتُ المنداحةُ من بين خطوطِ الكفِّ،
إلى غورِ الفتحاتِ المخبوءةِ في الصدفِ البحريّ؟

أمسك رغوةَ زبدٍ تتطايرُ فوق الرملِ مفضّضةً . .
وتذكّرَ، منفعلاً، زمناً يتبدّدُ . .
هل حان الوقتُ؟ . . سليمانُ انتظرِ الآن، الأرضُ امتلأتْ
بالأجسامِ الحيّةِ، وامتدّتْ من دمكَ المسكونِ بهاجسهِ
القدسيِّ،
وهذا وجهكَ . . لحظياً ـ يتجمّعُ طلعَ نباتاتٍ، وهياكلَ موتى،
ومدائنَ للغرباءِ، . . وثانيةً . . يتنثّرُ أمكنةً، وروائحَ بحرٍ
مهجورٍ، وقبابَ كنائسَ تبزغُ في لمعانِ الفجرِ مغبرّةً . .
فلماذا غمرتكَ بنشوتها الليليةِ، لحظتكَ السحريةُ
هل كنت تعاود حلماً موصولاً بنزيفكَ، أم كنت تفارقُ
صمتَ الصحراءِ؟ . .
● لا . . بل أبتدعُ سماواتٍ لرفيفِ الأجنحةِ الخضراءِ ،
مواسمَ

للإخصابِ، فضاءً للأبراجِ وللطيرِ المنقوشِ الريشِ . .
وهاداً معشبةً لخيولٍ تأتي، عبر حدودِ الأرضِ، مجنّحةً . .
وأغيّرُ لونَ دمي ببياضِ الموجةِ،
ومساحةَ جسمي . . بخضارِ حقولٍ مشمسةٍ
ـ لكنكَ . . خطفةُ أبدٍ تلتمعُ بدفقتِها الأزليةِ
تتجددُ كالقطرةِ بين الغيمةِ والبحرِ
ومنفرداً . . تكتملُ الآنْ .

خطّط دائرةً في الرملِ، اتّسعتْ دائرةُ الرملِ . .
فشاهد خيطَ دمٍ يزحفُ من نهرِ النيلِ إلى الصحراءِ،
وأعمدةً من ملحٍ ذائبةً في الأرضِ،
وماءً يخرجُ من قبرْ
ومراكبَ شمسٍ صاعدةً بتوابيتَ امتلأتْ بدمِ الموتى،
ورمادَ قبورٍ يتناثرُ من فيضانِ النهرْ
ونساءً موشوماتٍ بالحمأةِ . .
يصعدن تجاه جبالٍ يتساقطُ منها الطيرْ
وبصرْخاتٍ من عمق الصدر . . دخلن جموعاً تأتي من
أزمنةِ السبيِ، وفي غمرةِ أبخرةٍ . . يذبحن طيوراً
عالقةً بجدارِ المبكى . .
وسط الصحراءِ أقمن عموداً . .
وتلقّين العهدْ:
«يا اسرائيلْ: صِرْ شعباً وجماعاتٍ . . نسلُكَ
كترابِ الأرضِ يكونُ . . كرملِ البحرِ يصير . .»

انداحتْ في الأفقِ الدائرةُ الرمليّةُ . .
وتجمّع ملء يديهِ صراخٌ تُخرجهُ من باطنِها الأرضُ، . .
فأبصر نجمةَ داودَ على الخوذاتِ، وبحراً منشقّاً . .
وشواهدَ قبرٍ مفتوحٍ نثرتها الريحُ: نباتاتٍ ناتئةً تنمو
بين الأعشابِ مصوّحةً، مزقَ الرياتِ على الصلبانِ،
خيوطَ العلقِ المتجمّدِ . .
وسقاةَ الماءِ، بظلمةِ ليلٍ، يحتلبون ضروعاً من حجرٍ .
ورماحاً مشرعةً خلف الأسوارِ . .
أتلك مدينةُ بابلَ . .
أم شجرةُ نارٍ تصعدُ من أرضِ فلسطينَ،
انتبهِ الآن سليمانُ . .
الغرباءُ على مقربةٍ من تبّتكَ الصخريةِ
اِنتبهِ الآن . . فليس بتلك الصحراءِ الممتدّةِ غير سكونِ
الرملِ، وقرصِ الشمسِ الغاربِ عبر جبالِ الطورِ . .
ولحظتكَ المنشودةِ
وسبايا بابلَ يمتدّون أمامكَ . .
فاخرجْ ـ مجلوّاً ـ باسمِ الله
وخُذْ بيمينكَ زمناً ينمو، صَوِّبْ صَوْبَ الغرباءِ
وأطلقْ ـ يا ابن البسطاءِ ـ رصاصكَ
أطلقْ، أطلقْ .
للوطنِ حدودٌ، للأرضِ مهابتُها
للطفلةِ حقُّ الأمنِ، وللزوجةِ حرمتُها
أطلقْ، أطلقْ
سلمتْ يمناكَ، دمٌ بدمٍ
هذي سيناءُ وليست أرضَ الغربةِ،
أطلقْ، أطلقْ .

والآن سليمانُ انظرْ،
مشهدكَ الطالعَ ـ كالغيبِ ـ من الرملِ .
فرّتْ من أجسامِ الفتياتِ بأكيادَ، وحبّاتِ القمحِ على
الأعوادِ، وصغّتْ في تبتكَ الصخريةِ . .
لحظتكَ الدمويةُ . .
واندفقتْ في دائرةِ الرملِ، اتّسعتْ دائرةُ الرملِ،
اتّسعتْ دائرةُ الرملِ . . لتسقطَ نجمةُ داودْ . .

والمرئيّاتُ مغبّشةً تنداحُ،
وقوسُ الأفقِ انفتحَ على الصحراءِ . .
وليس سوى هَبّاتِ هواءٍ تنثرُ أتربةً، ورتابةِ خَطْوِ الجندِ،
ونثْرِ ضياءٍ رنقٍ فوق صخورٍ معشبةٍ، . .
وأنا أتأملُ وجهكَ . .
ذاكَ القلقَ السابحَ في الصفو
عَقْداً منظوماً من صدفٍ وسحابةِ صيف
فلماذا أطلقتَ رصاصكَ ـ يا ابن البسطاءِ ـ
وكيف، وأنت الريفيُّ، اندفعتْ من بين يديكَ طيورٌ
تلتقطُ الدمَ
وتحطُّ على الصخرةِ في نزفٍ أبديّ
ولماذا يا جنديّ
خالفتَ نظامَ الطاعة؟ . .

● كي تنموَ رائحة الدمِ
كي لا يتبدّل ماءُ النيلِ بحبرِ معاهدةٍ،
وتصيرُ الراياتُ شواهدَ موتى، وعلاماتِ قبورْ
- هل سيعودون؟
● نعم.
وسأمشي في الطرقاتِ نذيراً، سيعودون
وسأنشرُ فوق دمي أفقاً، أو أفتحُ قبراً..
سيعودون..
وسأطلعُ من بين رمادي..
شجرةَ نارٍ وسطَ الصحراءْ
وسأرحلُ عن جسدي مكتملَ الروحِ..
وأتركُ موضعه.. رغبةَ أجنحةٍ في الطيرانِ،
وسنبلةً خضراءْ
- قد ينفصلُ الدمُ عن مشهدهِ،
وتغيبُ ملامحُ وجهكَ..
وتصيرُ مقاطعَ في أغنيةٍ، أو خطباً في المؤتمراتِ،
فواصلَ بين الإعلاناتِ، شعاراً في النداواتِ، مسيراتِ
الطلابِ، بنوداً في القانونِ، وخبراً في النشراتِ..
فمن يشهدْ؟
● ذاكرةُ الرملِ..
وغيبٌ، في الرؤية، يتجسّدْ
فرحُ الأطفالِ بيومِ العيدِ، نداءاتُ الباعةِ في الأسواقِ،
مواعيدُ العشاقِ الليليةُ، خبزُ الفقراءِ، صلاةُ الغائبِ،
إكليلُ الوردِ على نصبِ الشهداءِ، وشكلُ الثمرةِ في بدءِ
الإنباتِ، مراسمُ دفنِ الأمواتِ، مواويلُ الجوّالين بليلِ
الغربةِ، وبذورُ نباتٍ تهجسُ للتربةِ..
عينا الصقرِ الذهبيِّ الماسكِ تاج القطرينِ..
وقرصِ الشمسِ الوهّاجةِ..
الحافظِ روح أبيهِ - إلهِ النيلِ، الصاعدِ في قاربِ رعْ،
الدائم في نسلِ بنيه
الساكنِ في خضرةِ ودايهِ، وبين زخارفِ معبدْ.

يا أجملَ من صدقَ الوعدَ.. قد اكتمل المشهدْ
هل كان كلانا - في أول أيام الصيفِ - على موعدْ
لطيورٍ عائدةٍ عند مغيبِ الشمسِ، سأنثرُ حبّاتِ القمحِ..
وأفتحُ نافذةً في الليلِ على البحرْ
لهديلِ حماماتٍ بيضاءَ، سأرسمُ أبراجاً مشمسةً..
وأفتّحُ جسمي..
لتساقطِ ضوءِ نجومٍ في أعشاشِ الطيرْ
آهٍ، لو تعرف توق يديّ لضمكَ للصدرْ
سأكونُ غنائياً..
وأزفّكَ في الثوبِ الأبيضِ، وألفُّ على صدركَ
وشْيَ الشالِ.. فهذي ليلةُ عرسكَ.
وأذوّبُ جسمكَ في الماءِ النيليِّ ليدفقَ في التربةِ،
وأعيدكَ للنهرْ
فاصعدْ.. قد وفّيْتَ النذرْ
محفوفاً بصليلِ الأجراسِ الكنسيّةِ، وتسابيحِ الفجرْ
فاتحةً - لفضاءٍ خِلوٍ إلا من هاجسكَ القدسيِّ -
أرى وجهكَ - يا ابنَ البسطاءِ -
وأشهدُ غيباً في الرملِ، فأبصرُ فيكَ الطالعَ..
وطناً يرجعُ لخرائطهِ
ومدائنَ لا تدركها الرؤيةُ..
ومراكبَ شمسٍ صاعدةً بامرأةٍ، تحملُ زهرَ اللوتسِ..
وتخشّ مدينة طيبةَ،
واضعةً تاجَ القطرينِ على الأبوابِ السبعةِ،
ومياهاً، في موسمِ فيضانِ النهرِ، تغطّي سطحَ الأرضِ
بدفقتِها الأبديّة،
ويداً تمتدُّ خلال الصحراءِ أمام الغرباءِ..
وتلك بشارتُكَ الأولى.

القاهرة